علة الفاقة

الفاقة علّة اجتماعية تحلّ بالفرد كما تحلّ بالدّولة وتبث شرورها أينما طاب لها المستقرّ .

ومن المؤسف حقّا أن العالم في تاريخه الطويل — وقد تجاوز في عرف علماء الجيولوجيا ملايين السنين — لم يسلم من هذا الداء ، ولم نعرف عهداً جاء خلواً من علّة الفقر ، ولم نسمع عن بلاد نعمت ، ولو في آونة من حياتها ، برخاء شمل الجميع وعمّ أرجاءها بغير استثناء .

فهذه العلة إذن علة ذات صفة عالمية أثمية — لا قومية وطنية — تنتشر في كل حقبة وفي كل بقعة حتى ليسع المرء أن يقول أنّ الأقمار والنجوم لا يمكن أن تنجو من داء الفقر إذا ثبت أن فيها كائنات حيّة .

واليوم ، يعترض العالم بعد حرب ضروس طحنت المدنيّة ستة أعوام ، ودكّت حصون العمران كالرحى ، وأبادت نفوساً تقدّر عُـدّتها ببضعة ملايين قد تتجاوز الخمسة ، واستنزفت الذهب والفضّة وموارد الانتاج ومواد الطعام والثروة الحيوانيـة ، يعترض العالم خطر استفحال علة الفاقة واستشراء داء العوز في القارة الأوروبية بوجه خاص ، وفي بقاع العالم الأخرى عامة ، وجهود المصلحين منصرفة الى هـذا الاتجاه ، تروم أن تضع اليد على موطن البـلاء لتعمل على لجتثات جذوره وقطع دابره . فمن قروض يعقدها خازن المال للشعوب المفتقرة ، ومن إسعاف في الغـذاء والملبس يرسل على عجل الى أقطار أوروبا ، ومن مشروع يصممه الوزير الأميركي مارشال وينفذه اقتصاديو أوروبا ويقتضيه جمهوريو أميركا ابتغاء الأخذ بناصرة البلاد التي تهالـكت تحت وطأة الحرب وغدت في حالة هي بئس الحالات .

ولـكن الباحث لا تأخذه المظاهر ، ولا يستهويه معسول القول ، فهو إذا أمعن في التفاؤل وسلم تسليماً أعمى بأن المدد سينزل كالغيث المدرار من الدنيا الجديدة على الدنيا القديمة ، وأن أوروبا لن تبرح حتى تصبح موفورة الغـذاء مشحونة بالسخيّ من الـكسى ، مغدقاً عليهـا بمال قدروا قيمته بإثنين وعشرين ألف مليون دولار ... إذا سلّم الباحث بكل ما ترويه وكالات الأنباء من أخبار الغوث والعون ، فهو لا بدّ سائل نفسه : « أفي هذه المساعي قضاء على الفاقة وقطع لدابر البؤس ؟ وهل حان للعالم أن يتنفس الصعداء ويرفع عن صدره كابوس الفقر الذي جثم عليه منذ حلّ البشر بأرض ؟ » .

يقول العالم الاجتماعي منجوله إنّ الفقر شرّ جميع علل المجتمع فهو يحطم الحياة بأن يدفع بالناس الى الجريمة والى الشذوذات الاجتماعية ويورّط العائلات في مشكلات خطيرة المدى ، ويفضي الى اضطرابات اجتماعية من كل نوع . والفاقة تودي إلى الضعف والى القصور العقلي والى أمراض قد لا يستطاع دفعها وإلى تدهور صحيّ بدنيّ .

تلك هي نتائج الفاقة ، ولكن كيف تنشأ ، وما هي أسبابها ؟

هناك أسباب مباشرة وأسباب غير مباشرة تعمل متجمعة أو متفرقة على خلق هذه العلة .

١ — وأول سبب مباشر للفاقة هو نقص الإنتاج وقصوره عن الوفاء بحاجة السكان . وثروة الشعب كما هو مألوف معروف تقاس بمدى ما تنتجه البلاد من سلع وما يؤديه أهلها من خدمات . فإذا اتبع النظام العلمي في تقدير ثروة البلاد ، واتبع النظام العلمي في الظفر بالعدد الصحيح للسكان أمكن معرفة نصيب الفرد من الثروة القومية ، وتسنّى من هذه النتيجة الحكم على مدى كفاية الانتاج أو قصوره .

ويقصر الانتاج عادة عن الوفاء بالحاجة إذا كانت الموارد تعاني نقصاً كأن تكون التربة غير خصبة ، أو تغلّ الأرض غلة قليلة ، أو يفتقر الزارع الى آلات الصناعة الحديثة التي تستخدم في الحقول ، أو يكون المنتج غير ملمّ إلماماً علمياً تاماً بوسائل استنباط أقصى حد ممكن من الثروة الطبيعية ، أو لسوء الأحوال الجوية ، أو لتخلف الشعب عن متابعة النهضة الحديثة ، أو للعجز عن القضاء على الحشرات المهلكة للنباتات أو الحيوان . وجميع هذه العوامل لا تصيب إلا الشعوب التي لا تزال سادرة في غي الجهالة يخيم على عيونها عمى البصيرة وتعجز عن استبدال المحراث الخشبي الفرعوني بآلات حرث ترفع سافل التربة وتدفن في بطنها أعاليها . فما لا ريب فيه أن الدول التي استعانت بالآلة وأسرفت في تعميمها ، لم تعد تشكو من علة نقص الانتاج ، وإن كانت هناك علل أخرى تبعث على الجأر بالشكوى . والتقدم العلمي إذ يتضافر مع المال والأيدي العاملة يستطيع أن يستغل مورد الانتاج إلى أقصاه ويهيء للجميع سلماً وكذلك ينبغي على الدول التي هجرت الآلة عن وعي أو عن غير قصد ، أن تستعين بها ، فهي معوان على تذليل الشدائد ، وأداة تتضاءل أمامها عوامل الطبيعة .

٢ — وثمة سبب مباشر ثان يفضي إلى استشراء علّة الفاقة واستفحال خطرها وهو : القصور الفردي الذاتي .

فإذا تعذر على الفرد أن يقتني من ضرورات الحياة ما يسدّ به رمقه ويطعم به أفراد عائلته كان في هذا نذير بدنوّ خطر آفة الفاقة . وأسباب قصور الفرد كثيرة ، فقد يكون تخلفه ناجماً من سذاجة تفكيره ، أو من إسرافه غير العادي في أمور لا جدوى من ورائها ،

أو من تقصير في التثقيف والتدريب ، أو من عيب بدني لا حيلة للمرء فيه ، أو من علة ورثها الابن عن أبيه .

وعلاج هذا التقصير الذاتي يتفاوت بتفاوت الحالات الفردية ، فالجاهل يمنح فرصة للتثقف ، والمريض تهيأ له وسائل العلاج ، وذو العاهة يعنى بأمره في مرافق الدولة الخيرية (كالملاجىء والمستشفيات) والمنكب على لذاذات تستنزف ماله بغير فطنة يُرشد إلى طريق الحكمة ، ليدخر قرشه أو لينفقه في ما يؤول للبناء لا الهدم .

٣ — ومن الأسباب المباشرة المفضية إلى تفاقم مشكلة الفقر ، الاهتمام بالذات وحبّ النفس . فالإنسان محبٌّ لذاته بفطرته ، أناني بطبيعته ، ولكن التثقيف والبيئة والعادات المكتسبة ينبغي أن تحدّ من سطوة العاطفة الإنيّة الذاتية ، وتجعل أعمال المرء لا تدور حول محور ذاته ، بل حول محور أوسع وأشمل . وحسبك أن تعلم أن سيطرة الأنانية على الأفراد والجماعات في مرافق الحياة من شأنها أن تنشىء منازعات وتطاحناً قد يؤول في منتهاه إلى منازلة الفريقين المتبارين . فالإفراط في التزاحم والتباري لمصالح الذاتية الخاصة يهدد بأن يستحصب في ركابه الفاقة التي تلقي عباءها على طبقات بأسرها لا على أفراد متفرقين . وحيثما كانت الثروة العامة قادرة على سدّ جميع الحاجات ، فإن الفاقة لا تجد منفذاً تتسلل منه إلى ذلك المجتمع السعيد إلاّ من ثغرة حب الذات والإثرة ، فهي طريق مضمون النجاح . وما كوارث الاقتصاد التي تنزل بالدول نتيجة المباراة في الانتاج وفي الأسواق إلاّ مظهر من مظاهر تغليب المصلحة الذاتية الخاصة على المصالح العامة .

ولنرتد بعد ذلك مع العالم الاجتماعي متجولاً لندرس الأسباب الثانوية التي تؤول إلى الفاقة والتواكل . وهذه الأسباب تكاد لكثرتها وتعددها تجلّ عن الحصر . وإذا تيسّر حصرها فإن بسطها ولو بإيجاز كفيل بأن يستوعب فراغاً كبيراً من دورية شهرية كالمقتطف

١ — وفي أول الثانوية نجد كلمة « الحرب » مكتوبة بالخط العريض ، وهي كلمة لا تغيب عن الذهن في الجيل الحالي والمرجو أن يسلم من شرّها ما يتلو ذلك من أجيال وقرون ، وتلك أمنية ترددها شفاه الساعة من سكان العالم ، ولكن أقطاب السياسة « وتجار الحروب » لا ينفكون يهددون بالهدوء إلى الحرب ويتوعدون بالتلميح والإيماء والاشارة بالنزول على إرادتها وإخضاع الآبي بالعنف حين لا يجدي المنطق والفلسفة .

والحرب على العموم نتيجة مباشرة أو غير مباشرة للصراع الاقتصادي بين الأمم . وغالبية الحروب التي ألمت بالعالم حتى اليوم شنها قادة على قادة آخرين مستخدمين الشعوب كأداة حقد وضغينة لوامل النضال مضحية بالأرواح ونديّ الدم . وقد دوّنت مشكلات

كثيرة بغير حرب ، بيد أن معظم الحروب إن لم تكن جميعها لم تحل مشكلة واحدة ، وإن كانت قد خلفت وراءها طائفة من مشكلات واضطرابات يعيي إصلاحها البشر ، ويعجز جيل واحد عن إزالة آثارها . فالحرب لا تزيد في جوهرها عن كونها إظهاراً لقوة الفريقين المتنازلين يريد كل منهما أن يسفر بقوته ويبرهن على ان له السيطرة في اتجاه من دونه . والحرب ما برحت منذ عرفها الانسان سبباً من أسباب العوز والمسغبة ، ولا تخرج منها الدول المتقارعة إلا وقد أثقلت بالدمار والخسائر وبددت ثرواتها ، وزاد عدد المشوهين الذين لا يصلحون للسلم ولا للحرب . وسواء كتبت الهزيمة للمحاربين أو ظفروا بالنصرة على العدو ، فالنتيجة التي لا مهرب منها هي أن الفريقين يخسران ، وإن أربت خسارة أحدهما على خسارة الآخر .

والنتيجة الأولى التي تتمخض عنها الحروب هي إبادة الثروة وإفناء الممتلكات وهلك العمران ، وما نشبت حرب إلا وكانت خطراً يستنزف ثروة الشعوب ومواردها ، ويحول معداتها من مناجل للحصد وآلات للنسج إلى أسلحة قتال ومصانع ذخيرة وقنابل . أما وقودها فهو كل ما تملكه البلاد من مال وجاه وموارد ورجال تلقى في أتونها فتلتهمها النار ولا يبقى منها حتى الرماد المذرو . وسواء اشتركت الأمم في الحروب أو اكتفت بالتأهب لها فلن تنجو من الفقر والعوز ، لأنها مضطرة في الحالة الثانية إلى اعداد الجيوش والانفاق على البحرية وانتاج السلاح والنهوض بأعباء المحاربين القدامى . وهذه جميعاً أبواب في الميزانية ترصد لها مئات الآلاف من الجنيهات لتضيع هدراً ، مع انه كان في الطاقة استغلالها في رفع مستوى المعيشة أو مكافحة الأوبئة أو إغاثة الملهوف أو إيواء المنكوب في حادث ، وما إلى ذلك من الخدمات النافعة المجدية .

٣ — واكتظاظ البلاد بالسكان سبب آخر من الأسباب غير المباشرة المنتجة للفاقة فاذا تعذر على البلاد أن تجد منفذاً لفائض عن طاقتها من السكان ، أو إذا عجزت عن انتاج سلع حيوية تكفي للنهوض بحاجاتهم وتهيئة وسائل العمل والمعيشة لهم ، فهي أمام أحد أمرين : إما أن تنهج نهج هتلر ووصيفه موسوليني فتطالب علناً بمجال حيوي ، وإما أن تجد نفسها في هوة تزداد عمقاً من العوز والفاقة .

ومصر اليوم على ما يقول استاذنا الدكتور وندل كليلاند في كتابه « مشكلة السكان في مصر » مكتظة بالسكان وغدت أرضها تضيق بساكنيها ، فلا غرو إذا كانت هذه الحالة من الأسباب القوية في تعزيز دعائم الفاقة بين ضفتي النيل ، ومن الاعتبارات التي ينبغي أن يوجه إليها أولو الشأن مزيد عنايتهم .

ويقول رجال الاجتماع ان النسبة بين عدد السكان ومقدرة الانتاج ينبغي أن تكون نسبة محفوظة ، فلا يصح أن ينمو عدد السكان عدواً كالارنب ، ويجر الانتاج زاحفاً كالسلحفاة لئلا تنفرج الثغرة ويعز الملاح . وتلك هي النظرية التي كان لمالتوس Malthus فضل كشفها ، وثبت أن أبا العلاء المعري توصل إليها قبله وصاغها شعراً رائعاً .

٣ — وهناك سبب ثالث غير مباشر يقود الى الفاقة وهو الافتقار الى التنظيم الصناعي ، والتنظيم الصناعي ركنان ركنان ينبغي أن يعهد الى اخصائيين لخاصيين في الاشراف عليهما وهما ركنا رأس المال واليد العاملة . ويدخل في نطاق « رأس المال » الإعداد الآلي الحديث والتنظيم الاداري الكفء وتهيئة الأحوال الصحية الملائمة . فإذا نظم هذا الجانب مثلاً وأغفل جانب العمال عملاً بالمبدأ الاقتصادي المعروف Laissez Faire ، كان ذلك مدعاة الى تسلل الفقر الى الميدان لأن النظام الاقتصادي لا يستقيم حتى تعزز جميع أركانه وتقوى جميع دعائمه ، وإلاّ إنهار الصرح وخلف ضحايا كثيرين تفترسهم الحاجة وتنهش أبدانهم علل الفقر .

٤ — وثمة أسباب أخرى لا معدى عن سردها إجمالاً ، وهي الغش والتزوير والسرف والافراط والمغالاة في الربا والعادات الشخصية المرذولة كإدمان الخمر واعتياد العربدة الجنسية ورفض العمل والمرض والعجز الجسماني والخمول والجهل وتسخير الصبية في الأعمال في المصانع وحل المنشآت وخيبة الزواج وتقدم السن والخيانة ... جميع هذه عوامل تفضي الى الفقر بصفة غير مباشرة . وقد يتسبب تكاثرها وتكالبها على بلد بعينه في إنزال كوارث اقتصادية في صميم كيانه .

تلك هي الاعتبارات التي من شأنها نشر علة الفاقة في العالم ، وإذا أريد مكافحة الداء العضال فلا معدى عن بحث أصوله وفروعه والعمل على إيجاد دواء لكل داء .

ويكاد العالم يكون اليوم — بعد حرب كونية أحلت في المدنية بقنابلها وقذائف مدافعها وصواريخها ودباباتها وطوربيداتها وغواصاتها وفدائييها وغازاتها السامة وتفاناتها طبها وادارها ومخترعات عباب البحر ومتن الجو — فريسة صالحة لجميع العوامل التي تهيئ للفاقة مرتعاً خصيباً ، فإن لم تتضافر الشعوب والحكومات على تمد يدها الصدق الى فقيرها ، ويحمل القوي ضعف الضعيف ، فلا أمل يرجى في إصلاح المعاطب ، ولا خير في هيئة أمم تلتحم فيها الألسنة بالجدال ، وتضرب قبضات أيدي الأعضاء منصات الخطابة ضربات حماسية وحيوية ، ولا مطمع في رخاء يشمل أركان المسكونة الاربعة وينعم في ظله البشر برغد وبحبوحة .

وديع فلسطين

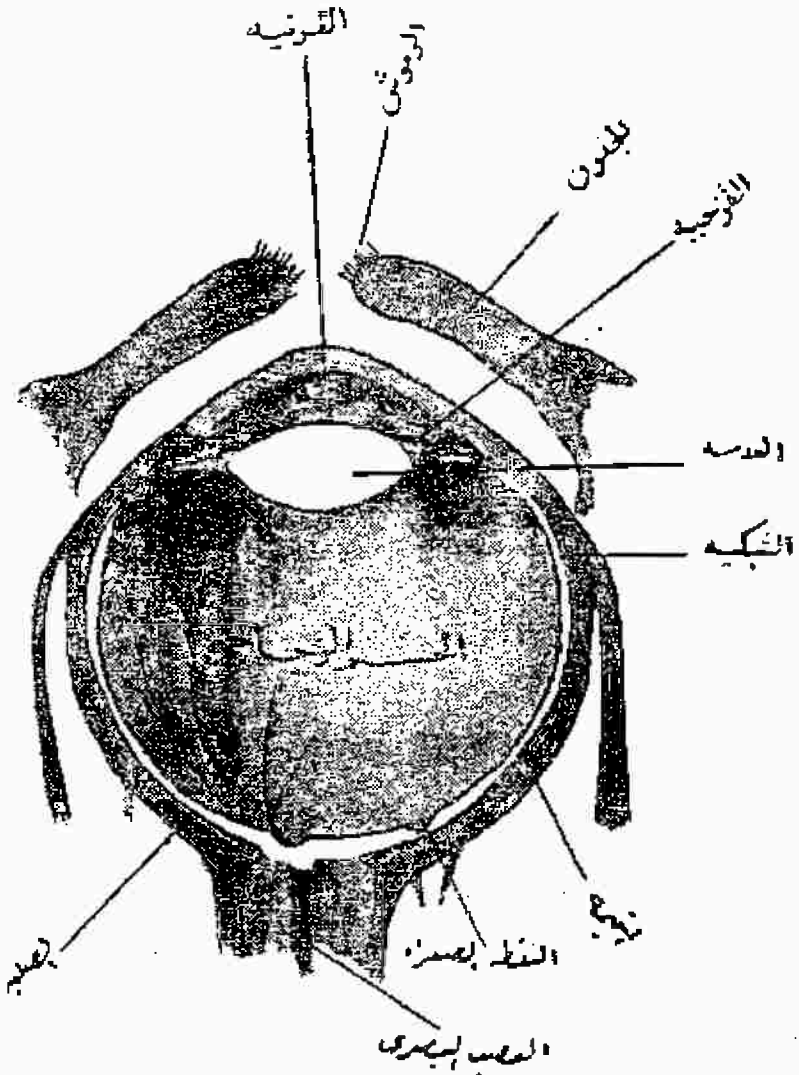

القرنية
الجفون
القزحية
العدسة
الشبكية
النقطة الصفراء
العصب البصري